المشرق

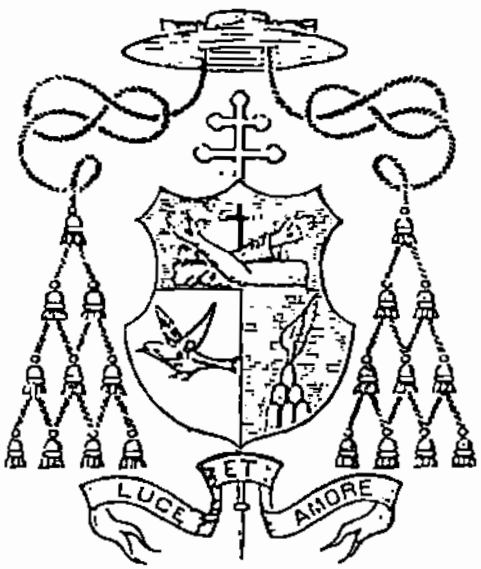

رسالة رعائية في الحكومة الدستورية

لسيادة القاصد الرسولي

الاخ فريديانو جيانيني

والنائب الرسولي على حلب والقاصد الرسولي على سورية

الى اعزّائنا الاكليروس والشعب اللاتيني في نيابتنا الرسولية سلام وطمأنينة وعزاء بالرب

ايها الاخوة الاعزاء

ان الحوادث الجارية بسرعة غريبة على مرأى منا توجب علينا ان نوجه كلمة صادقة مخلصة الى اعواننا الاعزاء وابنائنا الاحباء في هذه النيابة الرسولية

قد يكون من يزعم ان صبغة هذه الحوادث السياسية الداخلية لا تسوّغ لاجنبي

مثلنا ان يطرق باب البحث فيها اذ ان الدول الاوربية الكبرى نفسها قد نظرت بعين الدهشة والاعجاب الى هذا الانقلاب السريع الذي جرى في السلطنة العثمانية وارتأت وجوب العدول اقله الان عن كل مداخلة في شؤون تركيا الداخلية ولزوم موقف الانتظار الولائي تجاه المساعي التي تبذلها في سبيل نهضتها الوطنية. اما يكون الاجدر بنا ان نحذو نحن ايضاً هذا الحذو ونتمسك بخطة التحفظ والرصانة التي نهجتها الدول الكبرى ؟

وبالحقيقة ان ليس من قصدنا التداخل بحوادث السلطنة السياسية الحاضرة فاننا قد تجنبنا ذلك منذ البدء ووطنا العزم على لزوم هذه الخطة في المستقبل ايضاً واننا لنأنف من سلب الشعوب الوطنية فخرها في سعيها بنفسها وبمعزل عن كل مداخلة خارجية في احياء وطنها

وفضلاً عن ذلك ان وظيفة نيابتنا الرسولية هي من طبيعتها روحية بحتة وتحظر علينا الخوض في غمرات المنافسات السياسية التي تختص طبعاً بالنظام المادي. فمن واجباتنا نحن ان نصرف الهمة الى خلاص النفوس الابدي وندع لغيرنا العناية بامور السلطنة السياسية والاهتمام بدعة وغبطة الشعوب الزمنية. يروى عن الخليفة الشهير الملك الكامل انهُ اراد يوماً ان يتحف مؤسس الرهبانية السيرافية بهدايا ثمينة من ذهب وفضة فأجابه الفقير فرنسيس: «اني لم آت الشرق سعياً وراء الخيرات المادية بل انما اتيته رغبة في خلاص النفوس» ونحن نفتخر باننا نقتفي آثار ابينا العظيم بتضحية قوانا في هذه البلاد حباً بالنفوس الموكولة الى عنايتنا وسعياً في سبيل خيرها الروحي

غير اننا نرى ان هذا لا يصدنا عن الاهتمام ايضاً بنجاح البلاد المادي لاننا وان كنا اجانب نظراً لاصلنا فلسنا باجانب نظراً لمحبتنا لهذه البلاد التي اعتبرناها كوطننا الثاني مذ شاء قداسة الحبر الاعظم ان ينفذنا اليها لنسثله في خدمة النفوس ولهذا لا يسوغ لاحد ان يصوّب الينا سهام اللوم اذا ما اعلنّا صادق استحساننا للنهضة الوطنية في السلطنة العثمانية وتوسلنا الى الله ليبارك وينجح المساعي المشكورة التي يبذلها بنيّة صالحة مخلصة وغاية مستقيمة حميدة اولئك الذين يسعون وراء هذه الغاية النبيلة

ومن جهة اخرى نرتئي بصواب انهُ لما كنا مكلفين بامر النفوس كان من واجباتنا ان نسمع صوتنا في الوقت الحاضر لانهُ يندر ان لم نقل يمتنع حدوث انقلاب سياسي وان شرعياً دون ان يصدر عنهُ بعض الاضطراب الادبي الكثير الخطر للنفوس. والحال في ذلك حال المطر بعد القيظ الطويل فالناس يرجونه ويتوقعونه لاحياء الارض الظمآنة وارواء قليل الحيوانات العطشانة غير ان السماء حينذاك قلّما تسكب مطرها رذاذاً بل تهطله مدراراً مصحوباً بقصف الصواعق القتّالة وهبوب الارياح العاصفة الشديدة التي تجتاح مع الاغصان اليابسة المضرة النباتات الخضراء اليافعة ذات الثمار اليانعة . وهكذا شأن الانقلابات السياسية حتى الشرعية منها فانها تتحوّل بسهولة الى مضرة الاشخاص والنظامات المقدسة اذا تخطت حدود العدالة واللياقة لانها تصرف اذ ذاك كثيراً من النفوس الحرة عن الطريق القويمة فتميل بها عمداً او سهواً فتتأدب مع كل ريح تعليم كقول الرسول (افس ٤: ١٤) وذلك لما تعمل في رؤوس القوم نشوة الحرية التي لم يعهدوها من قبل وينفسح المجال في الخطب والصحف للتعاليم والمبادئ الغريبة التي لم يتوغّ ذووها فيها الا ميل الجمهور

فمن كان مكلفاً بامر النفوس لا يمكنهُ ان يقف وقفة المتجرد تجاه هذه الاخطار والا عرّض نفسه لان يهتف يوماً متأسفاً مع نبي اسرائيل: «ويل لي لاني سكتّ» (اشعيا ٦: ٥) وتعلمون قصة عالي حبر الشعب المختار وقاضيه الذي مع علمه بفساد ولديه وبالاخطار التي تتهدد بيته والامة جمعاء من جراء ذلك لم يجسر ان يخاطبهم بكلمة تنبيه او تحذير ولهذا انزل الله به العتاب الشديد ففي يوم واحد أُخبر بانهزام شعبه من امام العدو بقتل ولديه ولدى سماعه ذلك سقط على الارض ومات للحال وذهب ليعطي حساباً امام منبر الله عن تهاونه الاثيم

لا ايها الابناء الاعزاء لا نستطيع السكوت ولا نرضاه بل نحيّي فرحين ومبتهجين اشعة الحرية التي سطعت في هذه البلاد ونرفع الادعية الحارة ملتمسين النهضة الحقيقية الراهنة لوطننا هذا الثاني الكثير الاعزاز لدينا سواء كان لجهة ماضيه او لجهة ما

نرجوه منهُ في المستقبل. ومما يوطد فينا هـذا الرجاء ما شاهدناه من الاتفاق العجيب الذي أبرمت مواثيقه بنوع غير منتظر بـين السلطان والشعب ثم ما كان من بث شواعر الاخاء التي تبادلها كل سكان السلطنة دون فرق في الجنس والمذهب واخيرًا حدوث هذا الانقلاب بالهدو والسكينة دون اضطراب ولا اراقة دم كما جرى في انقلابات الامم الاخرى السياسية وكان لها وصمة عار مؤبدة. لكن رجاءنا لا يخلو من الخوف لان من يحب يخاف دائمًا ونحن نحبكم ايهـا الابناء الاعزاء. ولهذا لا نطمئن لخوفنا عليكم ونشعر بحاجة ماسة الى ان نوجـه اليكم كلمة مخلصة صادقة لنهج لكم سبيلًا تسيرون فيهِ حفظًا لنفوسكم من اخطار الزمن الحاضر

***

واولاً نريد ان تعلموا العلم اليقين وتعتقدوا ان الكنيسة في تعليمها لا تؤثر ولا تفضل هيئة من هيئات الحكومات المتنوعة على الاخرى. فالكنيسة الكاثوليكية تحترم وتأمر كل ابنائها ان يحترموا ويطيعوا السلطة الزمنية التي تعمل على خير الشعب الحقيقي ولا فرق عندها في ان تكون هذه السلطة بهيأة امارة او جمهورية او ملكية مقيدة او مطلقة. هذا ما علمهُ السعيد الذكر الحبر الاعظم لاون الثالث عشر برسالتهِ العامـة (Immortale Dei) بتاريخ ١ ت ٢ سنة ١٨٨٥ قبعد ان بسط بحكمة سامية مبادئ الفلسفة المسيحية الاساسية المتعلقة بتنظيم الحكومات صرّح بان لا هاتـه المبادئ ولا القوانين المتسلسلة عنها « تسوّغ رفض هيئـة اية كانت من هيئات الحكومات المتنوعة لان ليس في هذه الهيئات ما يناقض التعليم الكاثوليكي ولانها اذا استعملت بالحكمة والعدالة امكنهـا ان تضمن النجاح العام »

لا يمكن ان تكون طريقة الحكم واحدة عنـد كل الشعوب وذلك لما بين الامم من تنوع الاجناس واختلاف العادات والتقاليد التي تقضي بايثار هيئـة من هيئات الحكومات على غيرها

ان طريقـة التعصب والثورة البالغة حـد الافراط في الظلم والاستبداد وان تسترت وراء حجب الحرية الكاذبة هي وحدها تعمل على الزام الشعب بحكومة معينة

دون مراعاة اخلاقه وتاريخه وعاداته الجديرة بالاعتبار اما الكنيسة الكاثوليكية فترذل وتمقت هذا الظلم لانها وان كان لديها مبادئها في حسن ادارة الهيئة المدنية فهي تعلمنا بفم لاون الثالث عشر عينه « ان المبادئ بتجسمها في الحوادث تتخذ شكلاً عرضياً مخصصاً بالمكان الذي تطبقت فيه وبعبارة اخرى انهُ وان كانت كل هيئة من الهيئات السياسية حسنة بذاتها ويمكن استخدامها لادارة شؤون الشعوب فمع ذلك لا توجد عملياً الهيئة الواحدة نفسها عند كل الشعوب بل ان لكل شعب حكومة بهيئة خاصة وهذه الهيئة تتأتى عن مجموع الظروف التاريخية او الوطنية البشرية التي تعطي الامة شرائعها التقليدية حتى والاساسية وبهذه تتعين هيأة الحكومة الخاصة » (لاون الثالث عشر في رسالته الى اكليروس فرنسة ١٦ شباط ١٨٩٢)

وعلاوة على ذلك يمكن للشعب الواحد في مواقيت مختلفة ان ينتقل حسب الظروف من هيئة سياسية الى غيرها اذا اقتضى ذلك الصالح العام. لان حياة الشعوب من هذا القبيل تشبه حياة الافراد فالولد في صغره يكون بوصاية والديه وتحت ادارتهما وتدبيرهما وخاضعاً لهما في كل شيء لعجزه عن ان ينتقل بنفسه من محل الى آخر. لكنهُ كلما تقدم في السن أنس من نفسه الاستطاعة على القيام بحاجاته ومن ثم يضعف افتقاره الى والديه رويداً رويداً. ثم متى بلغ اشدّه وجنى الحكمة ثمرة الاختبار تيسر لهُ القيام بنفسه باعباء الاعمال والاستقلال بها وكان ذلك مدعاة لفرح وغبطة والديه انفسهما. هكذا حال الامم فان لزمها عند نشأتها وفي اول عهدها حكومة مطلقة فلا ينتج عن ذلك انها لا تستطيع عند استيفائها حظها من البلوغ ان تترق وتسعى الى حكومة حرة تمهد سبيل الرقي والنجاح لقواها ومنازعها الخاصة ولهذا صرح لاون الثالث عشر في رسالته (Immortale Dei) المذكورة اعلاه بانهُ « ان لوحظ الامر بذاته لا يمكن ان ينكر على الشعب حق تدخله بتنظيم الحكومة بل ان هذا التداخل عينه قد يكون في بعض الظروف ومع بعض الشرائع مفيداً للسكان بل وفرضاً واجباً عليهم ايضاً »

ان ما يولي الامة خيراً او يسومها ضيراً ليس بحصر القول هيئة الحكومة بل

هو سلوك القابضين على ازمة الاحكام وبالاحرى الشرائع التي يسنّونها للشعب « بن بين الشرائع والسلطة السياسية وهيئتها لوناً عظيماً فقد يحدث ان تكون الشرائع جائرة ممقوتة في حكومة منظمة على احسن هيئة وبالعكس يمكن لحكومة ذات هيئة غير كاملة ان تكون شرائعها في غاية الجودة... لان الشرائع ليست ألا عمل الناس المقلدين السلطة والمتولين فعلاً ادارة شؤون الامة. وعليه تكون حالة الشرائع اوفر تعلقاً بحالة هؤلاء الناس منها بهيئة الحكومة اي انها تكون حسنة او رديئة حسبما يكون المشترعون من ذوي المبادئ الصحيحة الصالحة او الشريرة الفاسدة ومن المتدربين بالحكمة السياسية او من المنقادين الى الاهواء » (لاون الثالث عشر الى اكليروس فرنسة ١٦ شباط ١٨٩٢)

وبناء على ذلك قد حقّ للكنيسة الكاثوليكية ان لا تؤثر هيئة من هيئات الحكومات على اخرى فهذه الخطة تسمح لها بان تعيش وتنمو في كل مكان وزمان وبان ترتبط بالعلاقات الحسنة مع الحكومات المطلقة والدستورية والجمهورية على السواء. ونحن لا نحرم الفائدة من خطة امنا الكنيسة التي تقف وقفة الحياد تجاه الهيئات المتنوعة التي يمكن ان تأخذها حكومة البلاد التي تسكنها. تلك لعمر الحق حرية ثمينة يروق لنا ان نستخدمها لنرحب بهيئة الحكومة الجديدة التي تنظمت في تركيا بفضل ما تمّ من الاتفاق العجيب بين السلطان والشعب ولترفع الادعية لتكون الحكومة الجديدة فاتحة عصر جديد يبسط رواق السلم والنجاح على شعوب السلطنة كلها

لكنهُ لكي لا يخيب رجاؤنا هذا ينبغي على المكلفين بتطبيق الاعمال على قواعد الدستور من وزراء واعيان ونواب ان يحرصوا على المبادئ الاساسية الموطدة للهيئة المدنية. لان الجور والظلم اعظم آفات السلم والنجاح العام يمكنهما لسوء الحظ ان ينتشرا حتى في الحكومة الحرة وذلك اذا ما اساء ذوو الامر التصرف بالسلطة وخوّلوا رغائبهم الخاصة قوة الشرائع خلافاً لمبادئ العدالة. ان الله منشئ الهيئة البشرية هو ايضاً مصدر السلطة العمومية كما قال الرسول: « لا سلطان الا من الله »

(رومية ١٣ : ١) ولهذا مهما كانت هيئة النظام السياسي على الحكام ان يتمثلوا الله دائمًا امامهم ويقتدوا بـه ويتخذوه مثالاً سامياً وقاعدة لاعمالهم. وبالتالي عليهم ان ينصفوا في حكمهم مراعين الخير العام ومتذكرين على الدوام بان لا سلطـة للانسان على امثاله الا بمقـدار ما يقتضيه الصالح العام (لاون الثالث عشر في رسالتـه Immortale Dei) واما ان اساؤوا استعمال السلطة واستخدموها للضغط على الشعب والتضييق عليه او على فئة صغيرة منهُ فان الله يناقشهم حسـاباً مدققاً عن ذلك لان « ارباب القوة بقوة يُفحصون » (الحكمة ٦ : ٧)

ومن هـذا كله يمكن لاعواننا الاعزاء ولابنائنا الاحباء في هذه النيابة الرسولية ان يروا جلياً اننا وان رحّبنا باخلاص بالحكومة الجديدة فلا نرتئي مع ذلك ان هيئة حكومة جديدة مهما كانت حسنة تكفي وحدها لتضمن للشعب السلام والنجاح. فان كل خير حقيقي مصدره الجودة الجوهرية اي الله فيجب علينا ان نبتهل بحرارة الى سيد الامم والشعوب الاعلى القابض بيده على قارب البشر ليتنازل ويحوّل بنعمته الى خير الشعب هذا الانقلاب العجيب الذي جرى في حكومة السلطنة العثمانيـة بان يلهم الحكام الحب الحقيقي المخلص للخير العـام

***

وليُسمح لنا هنا ان نبحث في الحكومة الجديدة من حيث الحرية التي تنعم بها على كل السكان

ان الحرية على ما حدّدها دانت اليغياري اشهر شعراء النصرانية هي اعظم منحة جادت بها العوارف الربانية على الانسان. لانهُ بها اصبح مسلطاً على اعماله ممتازاً عن الاشياء عالمًا بحقوقه وواجباته قابلاً للمدح او للذم وللثواب او للعقـاب وعبثًا حاول الملحدون في ايامنا ان يعودوا الى نشر الاضاليل القديمة ويسلبونا هذه الميزة والمنحـة الشريفة منحة الارادة الحرة التي قد أيدتهـا الفلسفة المسيحية طبقًا لمبادئ الضمير المسلم بها

لكن شأن الحرية شأن سائر الاشياء حتى خيرها واقدسها في انهُ يمكن التصرف

بها بحكمة او اساءة استعمالها بنوع يؤسف له . وهذا ما حمل لاون الثالث عشر على القول بصواب بانهُ « عن حسن او سوء فهم معنى الحرية تنتج اعظم الخيرات او اكبر الشرور لان الانسان بقوة هذه العطية الطبيعية الثمينة يمكنهُ ان يستنير بنور العقل المستقيم ويعمل الخير الادبي ويسلك طريقاً تؤدي بهِ الى غايته . كما انهُ يمكنهُ ايضاً لسوء الحظ ان ينهج خطة معاكسة اذ يُقرّ بالخيرات الخداعة وظواهرها الكاذبة فيشوّش النظام ويطوّح بنفسه في هلاك اختياري » (الرسالة العامة في الحرية البشرية)

ومن نكد الطالع ان قد انضم الى الاخطار الناجمة عن طبيعة الحرية نفسها سقطة ابوينا الاولين التي جرحت ارادتنا جرحاً بليغاً كقول المجمع التريدنتيني بجعلها ميّالة الى الشر . ولا ينكر ان مخلصنا الالهي السيد المسيح بتجديده الطبيعة البشرية واعادتها الى سابق منزلتها يشعر ارادتنا بقوة مفاعيل وساطته الالهية اذ يقويها بنعمته ويرجاء السعادة السامية على مقاومة الاميال الشريرة . لكن الفداء لم يلاشِ كل نتائج السقطة الاصلية ولهذا يحدث غالباً حتى اليوم بعد مرور تسعة عشر جيلاً على النصرانية ان الانسان لتأصل الاميال الشريرة في النفس البشرية يستخدم حريته لعمل الشر اكثر مما يستعملها لعمل الخير

وعن هذا نجمت ضرورة سنّ الشرائع ووضع العقابات تهديداً لمن يخرقها . وهذه الشرائع منها الهية ومنها بشرية فالالهية ما صدرت عن الله مباشرة والبشرية ما اعلنتها السلطة الدينية او المدنية الشرعية

وهذه الشرائع التي ترمي الى صدّ الشر ومنعه تضع الحدود لحريتنا ولا يحق لنا البتة ان نتظلم من ذلك . لان حرية فعل الشر انما هي رذيلة وليست بمزية طبيعتنا وكبحها بلجم الشرائع يعد خدمة جلّى في جانب الافراد كما في جانب الهيئة الاجتماعية كلها . ومما تقدم يتوضح ان السلطة المدنية التي خصصناها بالكلام هنا لما كانت غايتها تخويل الهيئة الاجتماعية حسن الحال المادي كان اقل ما تفعله بلوغاً الى هذه الغاية ان تسن الشرائع التي وان قصرت حريتنا وقيّدتها فانما تفعل لخير الافراد والعموم معاً وتتوصل هكذا الى توكيد الراحة العمومية غايتها الوحيدة . لانهُ لا يمكن ثبات

الهيئة البشرية بدون سلطة وشرائع بل ان جنسنا بدونها يباد ولا محالة بفوضى هائلة. والسلطة العمومية مهما كانت هيئتها السياسية ومهما كانت درجتها من الحرية تضطر بقوة الاشياء الى ان تضع حداً لحرية الافراد بواسطة الشرائع

ورب قائل يقول: اذاً ما معنى ما يردده القوم في المنتديات والشوارع من ان شمس الحرية قد بزغت في افق نواحينا اذا كانت الحكومة الجديدة التي تنظمت حديثاً في بلادنا لم تولنا شيئاً من الحرية؟

ايها الاعزاء ان الشريعة شيء واستبداد القابضين على ازمة السلطة العمومية شيء آخر. فالشريعة الحقة تسن للخير العام وتقييدها للحرية لا يعد اساءة للانسان بل بالعكس متة تمهد لهُ السبيل الى بلوغ غايته بحفظه من مساوئ الفوضى الجالبة للدمار. واما ارادة الحكام الذين هم كسائر الناس عرضة للزلل واتباع الاهواء فانها لا تنطبق دائماً على العقل السليم بل ربما كانت احياناً جائرة ومعاكسة للخير الخصوصي والعام. ومن ثمَّ يكون الخضوع للشريعة ضمانة للخير العام وليس فيهِ ما يذل الانسان لكنهُ يشرفهُ ويضمن لهُ استعمال الحرية المرتبة في كل ما لا يلحق ضرراً ولا اذية بالحوالج العمومية الحقة. بيد ان الطاعة المطلقة العمياء لرغائب الحكام انما هي عبودية محضة تقضي على الحرية الشرعية وتهضم الحقوق وتدوس كرامة الطبيعة البشرية الجديرة بالاحترام

والحال ان الحكومة الجديدة تنزع السلطة الاستبدادية من الحكام ولا تعترف الا بسلطة الشريعة القاضية بالمساواة بين الجميع ولهذا حقَّ ان تدعى الحكومة الجديدة حكومة حرة لانها اذا ما استثنينا ما تأمر بهِ الشريعة حفظاً للصالح العام تترك للقوم مثل الحرية في حركاتهم وسكناتهم والاعتناء بشؤونهم كما يرتؤون وصرف همهم ومساعيهم الى ما يرون فيهِ الصلاح وبالنتيجة قد قامت حكومة حرة مقام الحكومة الاستبدادية ضمن نطاق الشريعة. واذا لاحظنا الامر من الوجهة السياسية رأينا انهُ لم يبقَ عبيد ولا اسياد بل مواطنون احرار متساوون امام الحكومة في الحقوق والواجبات مهما كانت رتبتهم ومنزلتهم في الهيئة الاجتماعية

فقد حقّ لكم اذًا ايها الابناء الاعزاء ان تفرحوا وتغتبطوا باعلان الحكومة الجديدة التي سوّلت لكم ان تستعملوا في حدود اللياقة هذه العطية الطبيعية الثمينة نعني بها الحرية

لكننا الحرية اسمحوا لنا بهذا التشبيه هي كالخمر التي ان اقتصد الانسان في شربها اولتهُ القوة والنشاط وان افرط اضرتهُ واذتهُ . فالحكومة الدستورية الحرة تفرض في الشعب حصافة الرأي ورصانته ومن ثم لا يمكنها حتى وفي بعض الاحيان لا يلزمها ان تبتّ وتقطع كل شيء بسلطتها . لان الامر قد لا يكون من متعلقاتها ولان هذه الخطة تعرقل سير المساعي الافرادية العائدة بجزيل الفائدة على الصالح العام . ولهذا على الناس في مثل هذه الحكومة ان يديروا شؤونهم بذواتهم في ظروف عديدة باستعمالهم الحرية استعمالاً معقولاً . واما ان عدلوا عن ذلك الى اساءة التصرف بالحرية فانهم يلحقون الضرر بنفوسهم وبالاخرين ايضًا . واذا تمادوا في اثارة القلاقل والاضطرابات عملوا على تقويض اركان الحكومة الجديدة واقامة القديمة مقامها ولا تكون تلك المرة الاولى التي مهّد بها التطرف بالحرية سبل العودة للاستبداد

ولا نطيل البحث هنا في كل ما تخول الحكومة الجديدة الاهلين من انواع الحرية كحرية الدين وحرية التعليم وحرية القول وحرية الصحافة . لانهُ اذا نظرنا في الامر نظرًا عمليًا ولاحظنا احوال السلطنة العثمانية الخاصة لا يسعنا الّا الابتهاج بمنح هذه الحريات لثقتنا بان اعواننا وابناءنا الاعزاء في هذه النيابة الوسولية يستخدمونها كما يليق في سبيل مجد الله الاعظم وخلاص النفوس وزيادة انتشار التمدن الحقيقي وخير الشعب العام

غير انهُ يتولّانا بعض الخوف نظرًا لحرية القول والصحافة فان التزم فيها جانب الاعتدال كما يخلق باناس حصيفي الراي ووطنيين جديرين بحكومة حرة كانت هذه الحرية ايضًا حسنة النتائج جزيلة الفوائد لفسحها لنا مجالاً للمجاهرة بالدفاع عن الحقيقة وخصوصاً عن حقائق ديانتنا المقدسة ولتنوير الحكومة بتنبيه خاطرها الى ما ينبغي ازالته من المساوئ وما يقتضي احداثه من الاصلاحات سعياً وراء المصلحة العمومية

لكن كلامنا ليس عن هـذه بل عن تلك الحرية التي تنوي القول بسهولة وتدفعها الى تجاوز الحدود في انتقاد الاشخاص والنظامات والى ايضاح وعرض افكار جائرة مغالىً فيها ورغائب انتقامات شخصيـة وتشفيات ذميمة وذلك بظواهر غيرة كاذبة على الخير العام

ان المسؤولية لعظيمـة جدًا على من كلف نفسه الاصلاح بواسطة الصحافة اذ انهُ ما من شيء اعظم منها تأثيرًا في جمهور القراء وحملهم على الخير او الشر لان معظمهم لا يستطيع ان يرتئي رأياً من نفسهِ ولهـذا ترونهم مستعدين لقبول الاراء والمبادئ الاشدّ فسادًا لسهولـة تسربها اليهم. قد قال بعضهم ملمحًا الى الهيئة الاجتماعية الاوربية القديمة ان الصحافة العمومية وخصوصاً الجرائد هي في ايامنا بمثابة الفئة الرابعة من ممثلي الامة واما نحن فنرتئي انهُ في حكومة دستورية حقـة تكون الصحافة الفئة الاولى لانها هي التي تدرب الراي العام الوافر الحول والطول في العصر الحاضر

لهذا تحتم على الكاتب لزوم جانب الحكمة والفطنـة ليس فقط بان يمتنع عن نشر وتأييد بعض الاراء المهلكة التي اذا ما عُرضت على العموم كانت بمثابة مشاعل متقدة تطرح في مخزن بارود. بل عليهِ فوق ذلك ان يعتدل الاعتدال كله في انتقاد الاشخاص والنظامات ويعنى غاية جهده بالتفريق والتمييز بين هذه وتلك لئلا يتجنى بنسبته نقائص او ذنوب فريق الى الفريق الاخر. ومن بين النظامات عليهِ ان يحترم خاصة الدين اساس الهيئة المدنية الوحيد الذي ينبغي ان يظل محفوظ الكرامة وممزز الشأن رغماً عما يمكن وجوده لسوء الحظ من الامور الذميمة في سيرة الاكليروس. ومن هذه الحيثية لا ينبغي التساهل في تصديق كل التهم التي لا تصدر غالباً عن حب الخير المجرد بل عن رغبـة مس الدين نفسه بشخص خدامه

ثم ان النزغـة القوية التي تتولى الكاتب اليوم على اثر طلوع فجر الحكومة الدستورية انما هي تقريع رجال الحكومة الماضيـة وتشديد النكير عليهم وما تلك الا نتيجة ضغط تقادم عهده يسهل ادراكها حتى والتسامح بها الى حد معلوم. لكنهُ

ما من احد الا يسلّم بان التشفي بالساقطين ليس من شيم النفس الكريمة والتاريخ نفسهُ يروي لنا حيثاً قول البطل الفلورنتي بيروشيو ماراماالدو : « قتلت رجلًا ميتاً » ومن جهة اخرى ينبغي الاعتقاد بان الحكومة السابقة لم تخلُ من رجال جديرين بالاعتبار لم يلحقوا اذية باحد وعلاوة على ذلك ان المذنبين انفسهم لهم في الظروف ما يخفف جسامة ذنوبهم اذ ان معظمها تأتي عن المراكز التي تقلبوا فيها

واخيرًا لا نحرض الكتبة فقط بل وعموم ابنائنا الاعزاء ايضاً في هذه النيابة الرسولية على ان لا يسيئوا استعمال الحرية الجديدة بانضمامهم الى الجمعيات السرية المرذولة من الدين والعقل السليم لانها تكبلهم بقيودها السرية وتحرمهم الحرية الحقيقية اعز الكنوز واثمنها. فان الرجل المرتبط بجمعية سرية ليس برجل بل انهُ عبد في قبضة روسائه وهو لا يشعر. وبما اننا الان في عصر الحرية ويقضي اعلان كل الاراء الصالحة الحرة ونيل كل الرغائب المحللة فما الغاية من كتم هذه الجمعيات السرية امرها ؟ فلا فائدة ترجى من السر ان كانت غايتها حميدة . ولهذا بعد ما نرى كل ما تبذلهُ من العناية في سبيل بقائها سرية يسوغ لنا الحكم بانها تنوي نيات منكرة يرذلها كل ذي فضل وصلاح. فالسيد المسيح قد اراد ان نكون ابناء النور: «لتكونوا ابناء النور» (يو ١٢ : ٣٦) انبذوا الظلمات اذًا. انبذوا اسرار الشيع المنكرة. لكم الحرية في ان تؤلفوا الشركات وتشكلوا الجمعيات للدفاع عن مصالحكم لكن فليكن ذلك ظاهرًا وواضحاً للجميع كما يفعل الوطنيون الاحرار الذين لا يرون حاجة الى اخفاء اعمالهم وستر مقاصدهم. كونوا اذًا ابناء النور وحينئذ تكون جمعياتكم التي تستطر عليها البركات الربانية من الان آنئذ لنجاح وطنكم الارضي وتمهد لكم السبيل لنيل السعادة الابدية في الوطن السماوي

***

والان نوجه كلامنا اليكم ايها الاعوان الاعزاء والمرسلون الاحباء في هذه النيابة الرسولية

واولاً نرغب اليكم ان تقرأوا وتشرحوا للشعب هذه الرسالة الرعائية وان تبذلوا

جهدكم في نشرهـا ليقف الجميع على افكارنا ورغائبنا في ما يتعلق بالخطة الواجب اتخاذهـا تجاه الحكومة الجديدة التي تيمنت بها السلطنة العثمانية

ان النظام الجديد يفسح لامامنا مجالاً رحباً حرّاً لعملنا الانجيلي فلنستخدمهُ لمجد الله وخلاص النفوس

من عهد غير بعيد اي من تاريخ ٤ آب الماضي اغتنم قداسة ابينا البابا بيوس العاشر فرصة يوبيله الكهنوتي الخمسيني فوجـه الى الاكليروس الكاثوليكي رسالة تحريضية شائقة بيّن فيها قداسته بعناية ابوية وحكمة رسولية الفضائل التي يجب على خدمة المذبح ان يتحلّوا بها ليمكنهم ان يتسموا بنوع لائق المهـام الموكولة الى عنايتهم. وقـد جاءت هذه الرسالة الحبرية في غاية المناسبة للزمن الحاضر لتنعش فينا روح التقوى والغيرة ولتصيرنا فعلة قادرين على العمل في كرم الرب اذ توفر فينا كل مقتضيات الازمنة الحديثة. فلنتمم الفكرة اذاً في هـذا الكلام السامي ذي القوة المنيرة للعقل والمضرمة للقلب

اننا نعرفكم حق المعرفـة ايها الاعوان الاعزاء ولا نرى من حاجة الى زيادة التحريض غير اننا نرى من الواجب علينـا ان ننقل لكم بعض فقرات من الكلام الذهبي الذي وجههُ قداسة ابينا البابا بيوس العاشر منـذ سنوات قليلة الى اكليروس ايطاليا لما في هذا الكلام من المناسبة لهذه الانحاء في الحوادث الحاضرة: « ان الكاهن المرتفع على سائر الناس لتتميم مهمته التي تقلدها من الله عليهِ ان يترفع ايضاً عن كل المصالح البشرية وكل التحزبات وكل فئات الهيئة الاجتماعية. فيدان عمله الكنيسة حيث هو سفير الله ونائبه يعلم الحقيقة وينذر بها ويعلّم مع احترام حقوق الله احترام حقوق كل المخلوقات وبعمله هذا لا يعرّض نفسه للمقاومة ولا يظهر انهُ متحزب يضـد البعض ويناهض الاخرين . ولكي يتحاشى بعض الاميال والاغراض او لكي لا يثير في مواضيع عديدة الخواطر الساخطة ولا يتهوّر في خطر تلبيس الحقيقة او كتمها ويقصر في واجباتهِ في كلتا الحالتين. فضلاً عن انهُ في البحث عن الامور المادية يمكنهُ ان يتورّط في التزامات مضرة بشخصهِ وبشرف درجتهِ (رسالته بتـاريخ ١١ حزيران

١٩٠٥) ونعم القول. لان الكاهن لما كان ملتزماً بخدمته نحو الناس قاطبة ودون استثناء وجب عليه ان لا يكون ذا حزب بابتعاده وترفعه عن كل الاحزاب. وهذه هي الوسطة الوحيدة لمنع انشاء الاحزاب المناهضة للاكليروس التي تتحول دائماً الى احزاب مناهضة للدين. ان منزلة الكهنوت في غاية الرفعة والشرف وانهُ لإثم حقيقي ورزية جسيمة الحط من شأنها وحصرها في حدود حزب ضيقة وبالتالي تزع الكهنوت سمته السامية القائمة بالعناية العامة الشاملة لكل الناس. فينبغي ان محبة المسيح الشاملة التي كانت تحث الرسول هي نفسها تضرم قلوبنا الكهنوتية وتحملنا على بسط ذراعينا لعموم ابنائنا دون استثناء. وبقطع النظر عن الاحزاب التي تقسمهم وهكذا يمكننا ان نردد هتاف الرسول القائل: « ان محبة المسيح تحثنا » (٢ كور ٥: ١٤) دون ان يتسنى لاحد تكذيبنا

بينما نكتب هذه السطور نرى من نوافذ مقرنا الصيفي في جبل لبنان تمثال العذراء الطاهرة الجميل العظيم نراها ظافرة منتصبة على هذا الاثر الفخيم الذي اتفقت على تشييده القصادة الرسولية في سورية والبطريركية المارونية وكان الاحتفال بتدشينه يوم الاحد الواقع في ٣ ايار من السنة الحاضرة. وان سالفنا المأسوف عليه السيد دوقال السعيد الذكر لما فكر في هذا المشروع أمّل ان السيدة العذراء اذا كُرّمت بنوع خصوصي في بلاد سورية ظللت هذه الانحاء بظل حمايتها الخصوصية ونحن الذين أوتينا شرف انجاز هذا المشروع العظيم فبوجودنا تجاه هذه الحوادث التي جرت في السلطنة العثمانية بعد حفلة التدشين بزمان قليل نضع كل رجائنا في سيدة لبنان الطاهرة ونسألها ان تجعل هذه الحوادث آنية لتمجيد الله وديانته وان تمنّ على الشعب بان يجد فيها مزيد الرقي والنجاح الان ومدى الابد امين

وفيما نحن نستعين بصاراتكم نمنحكم البركة جميعاً ايها الاعوان الاعزاء والابناء الاحباء باسم الاب والابن والروح القدس

صدر عن كرسينا في حريصا (جبل لبنان) في ٨ ايلول ١٩٠٨ عيد ميلاد العذراء مريم

† الاخ فريديانو جيانيني